مجلـــة العلـــوم التربـــوية والدراســـات الإنســـانيـــة
ISSN: 2709-0302 (online)
Humanities and Educational Sciences Journal
ISSN: 2617-5908 (print)

السماع عند الإمام الشاطبي(*)

الباحث/ جميل قاسم أحمد مسعد
باحث في سلك الدكتوراه
شعبة اللغة العربية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية (سايس)
جامعة سيدي محمد بن عبد الله - فاس- المغرب
aljmal707@gmail.com

*) تاريخ تسليم البحث 8/10/2021 تاريخ قبوله للنشر 30/11/2021
*) موقع المجلة: http://hesj.org/ojs/index.php/hesj/index

السماع عند الإمام الشاطبي

الباحث/ جميل قاسم أحمد مسعد
باحث في سلك الدكتوراه
شعبة اللغة العربية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية (سايس)
جامعة سيدي محمد بن عبد الله - فاس- المغرب

ملخص البحث

الحمدلله رب العالمين وبه نستعين على أمور الدنيا والدين، وأصلي وأسلم على من بعثه الله رحمة للعالمين وإماماً للمتقين، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد:

فقد وعد الله هذه الأمة بالبقاء والخلود، وهيأ لها أسباب ذلك، ومن أعظم هذه الأسباب أن جعل لها لغةً خالدة أصيلةً أقسم بحفظها ودوامها {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (الحجر: ٩)، وجعل لهذه اللغة أصولاً وجذوراً باقية وخالدة مهما تغيرت الأيام وتبدلت الأعوام، فهي ثابتة ثبوت الجبال الراسية كمثل شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، ومن أهم عوامل ثباتها وبقائها ربطها بمصدرها الرئيس ومنبعها الصافي، والمراد كل ما نُقل عن الرعيل الأول من (قرآن وسنة وأقوال وحكم وشعر ونثر) وهو ما يسميه علماء الأصول بـ(السماع).

لذا نجد أن النحاة في مختلف العصور والأزمان تمسكوا به وجعلوه أصل الأصول، وبنوا عليه القواعد والأحكام، وردوا كل ما لم يكن له أصل في السماع، ومن هؤلاء الجهابذة والأعلام إمام الأندلس أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي الذي كان إماماً في اللغة والأصول، ومع أن ظهوره كان متأخراً في القرن الثامن الهجري ونشأته في بلاد بعيدة الآف الأميال عن الجزيرة العربية (فهو بعيدٌ عن مصدر اللغة زماناً ومكاناً) ومع ذلك لم يتخل عن الأخذ بالسماع، بل كانت له منهجية واضحة في ذلك تميز بها عن غيره.

Listening to Imam Shatiby

Researcher/ Gamil Qasem Ahmed Musaed
PhD researcher
Arabic Language Division - College of Arts and Humanities (SAIS)
University of Sidi Mohamed Ben Abdallah - Fes - Morocco

Research summary

Praise be to Allah, the Lord of the worlds, and by him we use the things of the world and religion, and I pray and pray for those whom God sent mercy to the worlds and Imam to the pious, and on his family and companions and those who followed them benevolently to the day of religion and after:

God promised this nation to remain and eternity, and prepared for it the reasons for this, and one of the greatest of these reasons that make it an authentic immortal language I swear to save and its permanence {we have sent down the male and we have him to the keepers} (stone: 9), and make this language origins and Roots Remain and eternal no matter.

One of the most important factors of its stability and survival linked to the source of the president and its net source, and what is meant all the quoted from the first of the (Quran, Sunnah, sayings, rule, poetry and Prose), which is what scholars call the origins of(hearing).

So we find that the sculptor in different ages and times adhered to it and made it the origin of the origins and built on it rules and provisions, and repaid everything that did not have an origin in hearing, and from these jihadis and flags Imam Al-Andalus Abu Isaac Ibrahim ibn Musa al-Shatbi, who was imam in the language and origins, and although his appearance was late in the

المقدمـــــــــة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ربي لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيرا، وبعد:

فإن لكل علم أصول يُبنى عليها ويستقي منها الأدلة والقواعد، فكما للفقه أصولٌ وللتفسير أصول فكذلك النحو له أصوله ومصادره، وأصول النحو هي أدلته التي تفرعت منها فصوله وفروعه، وقد لخص ذلك الإمام السيوطي في كتابه (الاقتراح) عندما عرف أصول النحو فقال: "هو علمٌ يُبحث فيه أدلة النحو الاجمالية من حيث هي أدلته وكيفية الاستدلال بها وحال المستدل"(١)، وكلما كانت هذه المصادر قوية ومتعددة انعكس ذلك على العلم ذاته، فأدلة النحو التي اعتمد عليها علماء اللغة كثيرة لكن الغالب منها ثلاثة: السماع والقياس والاجماع.

وأهم هذه المصادر هو السماع فقد اعتمد عليه علماء اللغة جميعهم عبر العصور والأزمان التي مر بها النحو العربي باختلاف مذاهبهم ومدارسهم، والكل مجمع على الأخذ به لكنهم يختلفون في المنهجية والطريقة، فمنهم من أكثر من الاستدلال بالحديث الشريف ومنهم من قلّ، ومنهم من استدل بالقراءات الشاذة غير المتواترة ومنهم من رد ذلك، ومنهم من أكثر من الشعر وأقوال العرب ولغاتهم ومنهم من قيّد ذلك ولم يكثر.

إذاً وأمام كل ذلك وحتى نضع الأمور في نصابها ونعرف منهجية النحاة وطريقتهم في الاستدلال بهذا الأصل العظيم، أحبّ الباحث أن يضرب مثالاً على ذلك ويقف مع واحداً من أهم علماء اللغة وأصول الفقه فقد جمع بين العلمين وبرز في ذلك وذاع صيته في الآفاق من خلال مؤلفاته التي لا غنى لكل باحث أو مستفيد منها فهو أصوليٌ لغويٌ بامتياز، وسنعرف ذلك من خلال ما تناوله في كتابه اللغوي الكبير (المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية)، وهو من أشهر شراح الألفية وكتابه من أكبر الشروح وأغزرها مادة، إذ عدد مجلدات الكتاب تصل إلى عشرة مجلدات، جمع فيها من الفوائد والقواعد والمسائل النحوية واللغوية مالم يذكره غيره.

أهم أسباب اختيار الموضوع:

١-كون السماع أهم أصول النحو، واعتمد عليه النحاة كثيراً في إثبات القواعد النحوية المختلفة.

٢- إبراز موقف الإمام الشاطبي من السماع، ومعرفة المنهجية والطريقة التي أخذ بها في الاستدلال به.

٣-إبراز كتاب (المقاصد الشافية) واستخراج الفوائد العظيمة الكامنة فيه.

(١) الاقتراح في أصول النحو، للسيوطي جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر (المتوفي: ٩١١هـ)، تعليق: عبدالحكيم عطيه، راجعه: علاء الدين عطية، الناشر: دار البيروتي، دمشق، الطبعة الثانية: ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، ص٢١.

حدود البحث:

بعض ما ورد من نصوص السماع سواءً كانت (قراءات قرآنية – أحاديث نبوية شريفة – كلام العرب من شعر ونثر) في كتاب المقاصد الشافية.

مشكلة البحث:

أن الباحثين أعرضوا عن إبراز موقف الإمام الشاطبي من السماع، ومعرفة المنهجية والطريقة التي أخذ بها في الاستدلال به، على الرغم من أهمية الموضوع الحساس، لذا كان لزاماً علينا حل هذه المشكلة.

منهج البحث:

اعتمد الباحث في هذه الدراسة المتواضعة المنهج الوصفي التحليلي، وذلك لكونه يناسب طبيعة الموضوع فهو يقوم على الاستقراء والتصنيف ثم التحليل والتفسير، وهذا المنهج هو مزيج من منهجين من مناهج البحث العلمي وهما (المنهج الوصفي، والمنهج التحليلي).

خطة البحث:

حيث تناولت في المقدمة أهم أسباب اختيار الموضوع وحدود الدراسة التي سيتناولها الباحث والمشكلة التي واجهته والمنهجية المتبعة في البحث، وتناولت في التمهيد تعريف السماع لغة واصطلاحًا، وما هي مصادره المعروفة عند النحاة، ثم تناولت في المبحث الأول موقف الشاطبي من القراءات القرآنية من خلال الاستدلال على ذلك من كتابه المقاصد الشافية، أما المبحث الثاني فتناولت فيه موقف الإمام الشاطبي من الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف، ومعرفة مذاهب النحاة في ذلك، ثم تناولت في المبحث الثالث موقف الشاطبي من كلام العرب (نثرًا، وشعرًا) مع ذكر الأمثلة من المقاصد الشافية، أما الخاتمة فذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها، والتوصيات التي ينبغي للدارسين والباحثين الاهتمام بها.

تمهيد: ما هو السماع؟ وما هي مصادره؟

قبل الدخول في الموضوع لا بد من معرفة ما هو السماع؟ وما هي مصادره وأقسامه؟

فالسماع لغة[٢]: مأخوذ من السمع، والسمع ما وقر في الأذن من شيء تسمعه. ويقال: ساء سمعا فأساء إجابة أي لم يسمع حسنا. ورجل سماع إذا كان كثير الاستماع لما يقال وينطق به. ومنه قوله عز وجل: (سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ) (المائدة: الآية ٤١).

(٢) لسان العرب لابن منظور جمال الدين الأنصاري (المتوفي: ٧١١هـ)، الناشر: دار صادر-بيروت، الطبعة: الثالثة-١٤١٤هـ، (باب العين فصل السين المهملة)، ١٦٤/٨.

والسماع اصطلاحاً: كل ما سُمع عن العرب ممن كانوا أصحاب الفصاحة والبلاغة وتم نقله إليهم ومدى قبولهم لـه أو ردهم، وقد عرفه ابن الأنباري وسماه النقل فقال: "النقل هو الكلام العربي الفصيح المنقول بالنقل الصحيح، الخارج عن حد القلة إلى حد الكثرة"(٣)، فيفهم من التعريف أنه اشترط للإستدلال بالسماع أن يكون فصيحاً ومتواتراً بحيث نقله جمع عن جمع بلغوا حد التواتر، وعرّفه الإمام السيوطي كذلك فقال: "وأعني به ما ثبت في كلام من يوثق بفصاحته، فشمل كلام الله تعالى، وكلام نبيه صلى الله عليه وسلم، وكلام العرب، قبل بعثته، وفي زمنه، وبعده، إلى أن فسدت الألسنة بكثرة المولدين، نظما ونثرا ، عن مسلم أو كافر"(٤)، من هذا التعريف يتضح أن السماع له ثلاثة مصادر:

١- القرآن الكريم.

٢- السنة النبوية الشريفة.

٣- كلام العرب (شعر ونثر).

وأيضاً يفهم من التعريف أن الأخذ بالسماع ليس على إطلاقه وإنما محدود بحقبة زمنية معينة قبل اعوجاج اللسان العربي (ولا مجال للخوض هنا في تحديد تلك الفترة الزمنية) لآن المقام لا يتسع لذلك.

والسماع أول أصول النحو وأعلاها منزلةً وقد وصفه الشاطبي بأنه أصل الأصول فقال: "وقد عُرف من حال المؤلف (يقصد ابن مالك) اتباعه للسماع واتكاله على الاستقراء الذي هو أصل الأصول في هذه الصناعة"(٥)، وكان من منهج الإمام الشاطبي في الاستشهاد هو البدء بذكر أمثلة النحو المصنوعة (وهذا منهج معظم النحاة) وذلك لكونها قابلة للتأويل والتقدير(٦)، وبعد ذلك يستشهد بالآيات القرآنية ثم الأحاديث النبوية (إن وجدت)، وبعدها يذكر الشاهد الشعري وهذه هي منهجيته في أغلب الكتاب، وسيتناول الباحث هذه المصادر بمزيد من الإيضاح والشرح، حيث أفرد لكل مصدر مبحثًا مستقلاً به، فكانت كالتالي:

المبحث الأول: موقف الإمام الشاطبي من القرآءات القرآنية.

المبحث الثاني: موقف الإمام الشاطبي من الاستشهاد بالحديث الشريف.

المبحث الثالث: موقف الإمام الشاطبي من الاستدلال بكلام العرب.

---

(٣) لمع الادلة في أصول النحو، لأبي البركات ابن الانباري، تحقيق: سعيد الافغاني، الناشر: دار الفكر، الطبعة: الاولى- دمشق ١٩٥٧م، ص٩٣، ص٨١.

(٤) الاقتراح في اصول النحو، للسيوطي، تعليق: عبدالحكيم عطية، تقديم: علاء الدين عطية، الناشر: دار البيروتي- دمشق، الطبعة الثانية:١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، ص٣٩.

(٥) ينظر: المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية لأبي اسحاق الشاطبي (المتوفي: ٧٩٠هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، الناشر: معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى - مكة المكرمة، الطبعة: الاولى ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م، ١٩٥/٩.

(٦) ينظر: جوانب التفكير النحوي لدى الاصوليين. د. عزمي حمد عيال سلمان. الناشر: دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان الطبعة الاولى ١٤٣٣-٢٠١٢م، ٩٤.

المبحث الأول:

موقف الإمام الشاطبي من الاستشهاد بالآيات القرآنية.

لما كان القرآن الكريم هو كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، أجمع علماء العربية على أنه يمثل أعلى درجات الفصاحة والبلاغة، وأن نصوصه أوثق الشواهد التي يرجعون إليها، بل إنهم قعّدوا القواعد وبنوا المسائل ورجحوا مواطن الخلاف وفق ما جاءت به آيات القرآن، وذلك لأن الله أنزله على رسوله بلسان عربي مبين ولكونه منزه عن اللحن والخطأ، ولأن لغته هي اللغة المثالية الرفيعة التي فهمها العرب على اختلاف ألسنتهم وأفهامهم، قال عنه الأصفهاني[٧] في كتابه (المفردات): "فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم. وما عداها وعدا الألفاظ المتفرعات عنها والمشتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة"[٨]، لذلك فقد أجمعوا أيضًا على حجية النص القرآني بقرآءاته المتعددة، وفي ذلك يقول الإمام السيوطي[٩]: "أما القرآن فكل ما ورد أنه قرئ به جاز الاحتجاج به في العربية، سواء كان متواترا، أو آحادا، أو شاذا، وقد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة في العربية إذا لم تخالف قياسا معلوما بل ولو خالفته يحتج بها في مثل ذلك الحرف بعينه، وإن لم يجز القياس عليه، كما يحتج بالمجمع على وروده ومخالفته القياس في ذلك الوارد بعينه، ولا يقاس عليه"[١٠]. وهذا كلام واضح وجلي من السيوطي ويفهم منه الاطلاق والعموم في الاحتجاج بالقراءات حتى لو خالفت القياس المشهور المعمول به وهو بذلك يسلك مسلك الأندلسيين الذين اعتبروا القراءات جميعها دون التفريق بينها.

---

(٧) هو: الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم الأصفهاني (أو الأصبهاني) المعروف بالراغب: أديب، من الحكماء العلماء. من أهل (أصبهان) سكن بغداد، واشتهر، حتى كان يقرن بالإمام الغزالي، من كتبه (محاضرات الأدباء - ط) مجلدان، و(الذريعة إلى مكارم الشريعة - ط) و(الأخلاق) ويسمى (أخلاق الراغب) و(جامع التفاسير) كبير، طبعت مقدمته، أخذ عنه البيضاوي في تفسيره، و(المفردات في غريب القرآن - ط)... توفي سنة (٥٠٢هـ). ينظر: الاعلام للزركلي ٢٥٥/٢.

(٨) ينظر: المفردات في غريب القران، للراغب الاصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، الناشر: دار المعرفة - لبنان، ص٦.

(٩) هو: عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد ابن سابق الدين الخضيري السيوطي، جلال الدين (٨٤٩ -٩١١هـ = ١٤٤٥ - ١٥٠٥م): إمام حافظ مؤرخ أديب له نحو ٦٠٠ مصنف، منها الكتاب الكبير، والرسالة الصغيرة. نشأ في القاهرة يتيما (مات والده وعمره خمس سنوات) ولما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس، وخلا بنفسه في روضة المقياس، على النيل، منزويا عن أصحابه جميعا، كأنه لا يعرف أحدا منهم، فألف أكثر كتبه. وكان الأغنياء والأمراء يزورونه ويعرضون عليه الأموال والهدايا فيردها. وطلبه السلطان مرارا فلم يحضر إليه، وأرسل إليه هدايا فردها. وبقي على ذلك إلى أن توفي رحمه الله. **ينظر: الأعلام**: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفي: ١٣٩٦هـ)، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر - أيار/ مايو ٢٠٠٢م، ج٣، ص٣٠١.

(١٠) ينظر: الاقتراح في اصول النحو، للسيوطي، ضبطه وعلق عليه: عبد الحكيم عطية، راجعه وقدم له: علاء الدين عطية، الناشر: دار البيروتي، دمشق، الطبعة: الثانية، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م، ص٣٩.

وبعد هذه المقدمة تعالوا بنا لنرى رأي الإمام الشاطبي– رحمه الله – في ذلك، فكان يرى: "أن القرآن إنما نزل بلسان العرب على حسب ما يخاطب به بعضهم بعضًا وعلى ما يتعارفون بينهم"(١١)، وقد ذكر في موضع آخر اعتبار طريقة العرب وعاداتهم في التخاطب لكونه نزل بلغتهم فقال معلقاً على قوله تعالى: (هو أعلم بكم) (النجم،٣٢): "أي منكم، حيث تتوهمون أن لكم علما، ولله تعالى علما، أو على حد ما تقولون: هذا أعلم من هذا. وهي طريقة العرب في كلامها، وبها نزل القرآن، فخوطبوا بمقتضى كلامهم، وبما يعتادون فيما بينهم"(١٢)، فنجد أن تفسير القران وإعرابه يعتمد بشكل كلي على ما كانت تتخاطب به العرب واعتادوا عليه.

وقد أكثر الإمام الشاطبي في كتاب المقاصد من الاستشهاد بالقران الكريم باختلاف قرآءاته وذلك لبيان قواعد النحو ومسائله، وقد بلغت النصوص القرآنية المستشهد بها حوالي (٢٠٨٨) نصا، وهذا العدد يعتبر كبيراً إذا ما قورن باستشهاد غيره من النحاة ومنهم سيبويه إذ بلغت النصوص المستشهد بها في كتابه (٣٩٦) نصاً ما بين شاهد ومثال(١٣).

والذي يريد أن يصل إليه الباحث هو موقف الإمام الشاطبي من الاستشهاد بالقراءات الشاذة والنادرة، لكونها منبع الخلاف بين النحاة، والذي يظهر للباحث بعد الاستقراء أن الإمام الشاطبي كان ممن أكثر من الاستدلال بالقراءات ولم يفرق بين كونها شاذة أو متواترة، ويظهر ذلك من خلال المظاهر التالية:

١– أنه أكثر من الإستدلال بها في مواطن كثيرة من كتابه وبنى عليها الأحكام والقواعد واعتمد عليها في كثير من المسائل النحوية المختلفة، وفي ذلك يقول الاستاذ عزمي سليمان (وهو يتحدث عن موقف نحاة الأندلس من القراءات الشاذة): "ويظهر ذلك بالأخص في موقف الشاطبي، إذ لم يميز بين قراءة متواترة وأخرى شاذة، فهما متساويتان لديه في الاستشهاد، وطالما اتسعت القاعدة النحوية لديه لتستوعب جميع الأنماط التي تجلبها تلك القراءات الشاذة وغيرها من القراءات"(١٤) أي أن الإمام الشاطبي أخذ بالقراءات جميعها ولم يرد أي قراءة وردت مما كان له الأثر الكبير في كثرة استنباط القواعد واتساعها لديه.

ومن الأمثلة على استشهاده بالقراءات الشاذة:

أ– استشهاده بقراءة من قرأ(١٥): (وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لِما مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) (الزخرف:٣٥) بكسر لام (لما) وتخفيف ميمها والتقدير: وإنْ كل ذلك للذي هو متاع الحياة الدنيا، وحاصل ذلك أن اللام تسقط مع (إن) المخففة إذا أمن اللبس بينها وبين (إن) النافية(١٦).

(١١) ينظر: المقاصد الشافية، ٦٢٧/٣.
(١٢) المصدر السابق، ٥٨٣/٤.
(١٣) ينظر: جوانب التفكير النحوي لدى الاصوليين، د. عزمي محمد سلمان، ص٩١.
(١٤) جوانب التفكير النحوي عند الشاطبي في كتابه المقاصد الشافية، د. عزمي سليمان، ص٧٤.
(١٥) ينظر: المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات، ابن جني، ٢٥٥/٢.
(١٦) ينظر: المقاصد الشافية، ٣٩١/٢.

ب-كذلك استشهاده بقراءة أبي عمرو وعمار مولى بني هاشم[١٧]: (هل أنتُم مُطْلِعُونِ) (الصافات:٥٤) بإسكان الطاء وكسر النون، حيث استشهد بها المؤلف على لحاق نون الوقاية الاسم إذا كان اسم فاعل وورد ذلك سماعاً لا قياساً[١٨].

ج- أيضاً استشهاده بقراءة: (مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهَالِيكُمْ) (المائدة:٨٩) بسكون الياء وهي قراءة جعفر الصادق[١٩]، حيث استشهد بها المؤلف (رحمه الله) على أن الاسم المنقوص قد ينصب بفتحةٍ مقدرةٍ على الياء مع أن الأولى ظهورها مشابهاً في ذلك الرفع والجر[٢٠].

٢- أيضاً مما يدل على اهتمامه بالقرآءات: دفاعه عن القراء والذود عنهم والرد على منتقديهم، ويظهر ذلك عند استدلاله بقراءة ابن عامر: "(وكذلك زُيِّن لكثير من المشركين قتلُ أولادَهم شركائهم) (الأنعام: الآية ١٣٧) حيث استدل بها على جواز الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول المنصوب وأنه من السماع الجائز القياس عليه وأثنى على قارئها فقال: "وهذه القراءة وحدها عذر لمن قاس في الموضع، لأنها نقلت عن موثوق بعربيته قبل التعلم، فإنه كان من كبار التابعين، ومن الذين يُقتدى بهم في الفصاحة كأمثاله الذين لم يعلم منهم مجاورة للعجم يحدث بها اللحن.. وأيضا فهو من العدول الذين لا يُظن بمثلهم إدخال الرأي في القراءة، كما ظُن بغيرهم، ولا اتباع خط المصحف مع عدم اعتباره الرواية. فالأولى في هذه القراءة (أن تجعل) حجة في الجواز، فإنها من أقوى ما يحتج به"[٢١]، فأثنى على الرواي بأنه كان من عصر التابعين العدول المتمسكين بعربيتهم الذين لم تختلط ألسنتهم بلغات أو ثقافات أخرى. وقد أثنى عليه أيضًا في موضع آخر فقال: "فلا يُسمع قول من قال بتخطئة ابن عامر والغض منه بأنه اتبع رأيه، وخط المصحف، وترك الرواية، وأن تلك القراءة لحن وغير جارية على أصول كلام العرب؛ فإن هذا القول تخرص عليه، وعدم توفية لحق الإمامة والتقدم والعدالة ولقاء الصحابة والأخذ عنهم؛ إذ كان من شيوخه الذين عول عليهم عثمان بن عفان -رضي الله- عنهم أجمعين. وأيضا فهو ممن اتفق الجم الغفير على اتباعه الأثر وعدم أخذه بالرأي كسائر السبعة وغيرهم، وممن اشتهر بنبذ الرأي واتباع السند في القراءة"[٢٢]، إذاً فالملاحظ أن المؤلف -رحمه الله- كان من منهجه الاستشهاد بالقراءات ولو

(١٧) ينظر: أطروحة دكتوراه بعنوان (أثر القراءات القرانية في الصناعة المعجمية تاج العروس نموذجا)، الدكتور: عبدالرزاق القادوسي، عام النشر: ٢٠١٠م، ص٢٢١.

(١٨) ينظر: المقاصد الشافية، ٣٢٩/١.

(١٩) هو: جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط، الهاشمي القرشي، أبو عبد الله، الملقب بالصادق، كان من أجلاء التابعين. وله منزلة رفيعة في العلم. أخذ عنه جماعة، منهم الإمامان أبو حنيفة ومالك. ولقب بالصادق لأنه لم يعرف عنه الكذب قط. له أخبار مع الخلفاء من بني العباس وكان جريئا عليهم صداعا بالحق، مولده ووفاته بالمدينة المنورة توفي سنة ١٤٨هـ. ينظر: الاعلام للزركلي ١٢٦/٢.

(٢٠) ينظر: المقاصد الشافية، ٢٣٠/١.

(٢١) المقاصد الشافية، ١٧٤/٤.

(٢٢) المقاصد الشافية، ١٧٩/٤.

كانت غير متواترة بل إنه أجاز القياس عليها كونها نُقلت من عربي موثوق بعدله وعدم لحنه وذلك لأنه لم يخالط العجم أو يجاورهم.

ومن الملاحظ كذلك أن الإمام الشاطبي سلك في الاستدلال بالقراءات مسلك من سبقه من الأندلسيين كـ(ابن مالك[٢٣] وأبي حيان[٢٤]) حيث أنهم كانوا يستدلون بالقراءة وإن كانت ضعيفة في نظر بعض النحاة ورجحوا مذهب النحاة القائلين بها وخالفوا في ذلك مذهب البصريين الذين ينتمون إليهم وهذا يدل على استقلالهم في الآراء واتباعهم للدليل لا المذهب، ولم يكتفوا بذلك فحسب بل دافعوا عن قارئها وراويها كونها قُرئت من عربي فصيح موثوق في حفظه وإتقانه وضبطه[٢٥]، ويحب أن يذكر الباحث ما ذكره أبو حيان وهو يدافع عن القراءة السابقة (رداً على ما قاله الزمخشري حول الآية) فقال: "وأعجب لعجمي ضعيف في النحو يرد على عربي صريح محض قراءة متواترة موجود نظيرها في لسان العرب في غير ما بيت وأعجب لسوء ظن هذا الرجل بالقراء الأئمة الذين تخيرتهم هذه الأمة لنقل كتاب الله شرقا وغربا، وقد اعتمد المسلمون على نقلهم لضبطهم ومعرفتهم وديانتهم"[٢٦]، وهو ردٌ واضح وصريح ودفاعٌ قوي على القراءة والقراء، وهذا كان المنهج السائد لدى علماء الأندلس في الاستدلال بالقراءات والأخذ بها والدفاع عن قارئها.

والملاحظ أن الشاطبي أضاف شيئاً مهماً في الإستدلال بهذه الآية غير ما قاله الإمام مالك وأبي حيان وهو جواز القياس عليها وإن كانت هذه القراءة مردودة عند البصريين لوجود الفصل بأجنبي بين المضاف والمضاف إليه، لكنهم يجيزون ذلك في الشعر لوروده بكثره فيه[٢٧] فمن باب أولى القياس على القراءة وإن كانت شاذة أو مردودة (والله أعلم).

٣- ومن المظاهر كذلك: أنه إذا استشهد بقراءة نسبها إلى قارئها، وهذا كثير في كتابه فلا تكاد تجد قراءة قرآنية إلا وهي منسوبة إلى قارئها، بل إنه إذا نقل قراءة غير منسوبة نسبها لمصدرها، ومثال ذلك:

أ- ما نقله الشاطبي عن سيبويه من قوله: وقرأ بعضهم (خاف) بالإمالة[٢٨] فقد نسب الإمام الشاطبي القراءة في هذا الموضع فقال: "والبعض هو حمزة الزيات[٢٩] ومن وافقه"[٣٠].

(٢٣) ينظر: شرح التسهيل لابن مالك، ٦٠/٤، ٢٧٧/٣.
(٢٤) ينظر: البحر المحيط في التفسير لابي حيان الاندلسي، تحقيق صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر- بيروت، الطبعة: ١٤٢٠هـ، ٦٥٧/٤.
(٢٥) ينظر: شرح التسهيل لابن مالك (٢٧٦/٣-٢٧٧)، البحر المحيط في التفسير، لابي حيان الاندلسي، ٦٥٧/٤.
(٢٦) البحر المحيط في التفسير لابي حيان ٦٥٨/٤.
(٢٧) ينظر: المقاصد الشافية، ١٧٨/٤.
(٢٨) ينظر: الكتاب لسيبويه، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ١٢١/٤.
(٢٩) هو: حمزة بن حبيب بن عمارة بن إسماعيل، التيمي، الزيات: أحد القراء السبعة. كان من موالي التيم فنسب إليهم. وكان يجلب الزيت من الكوفة إلى حلوان (في أواخر سواد العراق مما يلي بلاد الجبل) ويجلب الجبن والجوز إلى الكوفة. ومات بحلوان. كان عالما بالقراءات، انعقد الإجماع على تلقي قراءته بالقبول، توفي سنة (١٥٦هـ). ينظر: الاعلام للزركلي ٢٧٧/٢.
(٣٠) ينظر: المقاصد الشافية، ١٤٦/٨.

ب- كذلك ما ذكره في باب الفاعل عندما استشهد بالآية الكريمة: (فَأَصْبَحُوا لاَ تَرَى إِلاَ مَسَاكِنُهُمْ) حيث جاء بالفعل المضارع المبدوء بالتاء (ترى) وهي قراءة لبعض القراء وقد نسبها المؤلف وقال: "إنها قراءة الحسن[٣١] وعاصم الجحدرى[٣٢] وجماعة من التابعين"[٣٣].

إذاً نلاحظ مما سبق أن الإمام الشاطبي سلك مسلك الأندلسيين في الاستشهاد بالقراءات القرآنية وقبلها ولم يردها، ودافع عن الأئمة القراء وأثنى عليهم وانتصر لهم حاله في ذلك حال ابن مالك وأبي حيان وغيرهم من علماء الأندلس.

المبحث الثاني

موقف الشاطبي من الاستشهاد بالحديث الشريف.

هناك إجماع بين اللغويين والنحويين قديماً وحديثاً على أن محمد بن عبدالله -صلى الله عليه وسلم- هو أفصح من تكلم بالعربية وأن كلامه يأتي بعد كلام الله في الفصاحة والبلاغة والبيان، ومع ذلك اختلفوا في الاستشهاد بالأحاديث المروية في المسائل النحوية واللغوية وانقسموا إلى ثلاث فئات:

- فئة أجازت الاستشهاد بالحديث النبوي مطلقاً ومنهم: ابن مالك وابن هشام النحوي وابن جني[٣٤] وغيرهم[٣٥]، وقد بين الإمام الشاطبي موقف ابن مالك من الاستشهاد بالحديث فقال: "والسماع الذي اعتمده الناظم أمران: أحدهما: الشعر والآخر الحديث. أما الحديث فإنه خالف في الاستشهاد به جميع المتقدمين؛ إذ لا تجد في كتاب نحوي استدلالاً بحديث منقول عن رسول الله صلى الله عليه

(٣١) هو: الحسن بن يسار البصري الفقيه القارئ الزاهد العابد سيد زمانه إمام أهل البصرة بل إمام أهل العصر، ولد بالمدينة سنة إحدى وعشرين في خلافة عمر رضي الله عنه وكانت أمه خيرة مولاة لأم سلمة، سمع من عثمان وهو يخطب وشهد يوم الدار ورأى طلحة وعليا وروى عن عمران بن حصين والمغيرة بن شعبة وعبد الرحمن بن سمرة وأبي بكرة والنعمان بن بشير وجندب بن عبد الله وسمرة بن جندب وابن عباس وابن عمر وغيرهم، كان رأسا في العلم والحديث إماما مجتهدا كثير الاطلاع رأسا في القرآن وتفسيره رأسا في الوعظ والتذكير رأسا في الحلم والعبادة رأسا في الزهد والصدق رأسا في الفصاحة والبلاغة، مات الحسن ليلة الجمعة وغسله أيوب وحميد وأخرج حين انصرف الناس وازدحموا عليه حتى فاتت الناس صلاة العصر لم تصل في جامع البصرة وكان توفيه سنة عشر ومائة وعمره تسع وثمانون سنة وقيل ست وتسعون سنة. ينظر: الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (المتوفى: ٧٦٤هـ)، الناشر: دار إحياء التراث – بيروت، عام النشر: ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، (١٩٠،١٩١/١٢)، الاعلام للزركلي، (٢٢٦/٢).

(٣٢) هو: عاصم بن أبي الصباح الجحدري البصري المقرئ المفسر قرأ القرآن على سليمان بن قتة ونصر بن عاصم والحسن البصري قال ابن معين عاصم الجحدري هو صاحب القراءة ثقة روى عن عقبة بن ظبيان قال الشيخ شمس الدين قراءته شاذة وتوفي سنة ثمان وعشرين ومائة. ينظر: الوافي بالوفيات، (٣٢٤/١٦).

(٣٣) ينظر: المقاصد الشافية، (٥٧٦/٢).

(٣٤) هو: عثمان بن جني الموصلي، أبو الفتح: من أئمة الأدب والنحو، وله شعر. ولد بالموصل وتوفي ببغداد، عن نحو٦٥ عاما. وكان أبوه مملوكا روميا لسليمان بن فهد الأزدي الموصلي. (ت: ٣٩٢هـ). ينظر: إنباه الرواة على أنباه النحاة: جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (المتوفى: ٦٤٦هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار الفكر العربي - القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٢م.٣٣٥/٢، والاعلام للزركلي ٢٠٤/٤.

(٣٥) كالجوهري والحريري وابن سيده وابن فارس وابن خروف وابن بري والسهيلي وغيرهم. ينظر: اسفار الفصيح ابو سهل الهروي تحقيق: احمد بن سعيد قشاش، الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة الاولى، ١٤٢٠، ٢٣٢/١.

وسلم إلا على وجه أذكره بحول الله، وهم يستشهدون بكلام أجلاف العرب وسفهائهم، وبأشعارهم التي فيها ذكر الخنا والفحش، والذين لا يعرفون قبيلا[٣٦] من دبير"[٣٧]، نجد هنا أن الامام الشاطبي يدافع عن ابن مالك في أخذه بالحديث (مع أن له رأي آخر كما سنعرف ذلك قريباً) ولو كان بالمعنى إذ الاستدلال به أولى من كلام أجلاف العرب والذي لا يخلو من الفحش والبذاءة.

– وفئة رفضت الاستشهاد بالحديث الشريف في الدراسات اللغوية والنحوية، ومنهم ابن الضائع[٣٨]، وأبو حيان[٣٩]، وحجتهم في ذلك أن الرواة أجازوا رواية الحديث بالمعنى وأنه وقع اللحن كثيرا فيما روي من الحديث، لأن كثيراً من الرواة كانوا من غير العرب، وأن أئمة النحو المتقدمين لم يحتجوا بشيء منه كأبي عمرو ابن العلاء والخليل وسيبويه من أئمة البصريين، والكسائي والفراء من الكوفيين[٤٠]، وقد اعترض أبو حيان على ابن مالك في ذلك فقال: "على أن الواضعين الأولين لعلم النحو المستقرئين للأحكام من لسان العرب – كأبي عمرو بن العلاء، وعيسى بن عمر، والخليل، وسيبويه من أئمة البصريين، والكسائي، والفراء، وعلي بن مبارك الأحمر، وهشام الضرير من أئمة الكوفيين– لم يفعلوا ذلك، وتبعهم على هذا المسلك المتأخرون من الفريقين، وغيرهم من نحاة الأقاليم، كنحاة بغداد وأهل الأندلس"[٤١]. وبالنظر في حجة هؤلاء يلوح لك نوع من الصواب فيها وذلك لقوة ما استدلوا به حتى أنه جاء من المتأخرين من أيد ذلك، يقول الشيخ أحمد الإسكندري: "مضت ثمانية قرون والعلماء من أول أبي الأسود الدؤلي إلى ابن مالك لا يحتجون بلفظ الحديث في اللغة إلا الأحاديث المتواترة"[٤٢]، ومن هنا استنبط المتأخرون الفئة الثالثة وهي:

(٣٦) القبيل والدبير: قال يعقوب: القبيل: ما أقبلت به إلى صدرك، والدبير: ما أدبرت به عن صدرك، يقال: "فلان ما يعرف قبيلا من دبير". وفلان مقابل ومدابر: إذا كان محضا من أبويه. قال الاصمعي: وأصله من الاقبالة والادبارة، وهو شق في الاذن، ثم يفتل ذلك، فإذا أقبل به فهو الاقبالة، وإذا أدبر به فهو الادبارة. والقبلة سميت قبلة لإقبال الناس عليها في صلاتهم، وهي مقبلة عليهم أيضا. ويقال: فعل ذلك قبلا، أي مواجهة. وهذا من قبل فلان، أي من عنده، كأنه هو الذي أقبل به عليك. والقبال: زمام البعير والنعل. وقابلتها: جعلت لها قبالين، لأن كل واحد منهما يقبل على الآخر ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لأبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ٦٥٤/٢ باب (دبر)، معجم مقاييس اللغة، لاحمد بن فارس (المتوفي: ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبدالسلام هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، باب (قبل)، ٥٢/٥.

(٣٧) ينظر: المقاصد الشافية، ٤٠١/٣.

(٣٨) هو: علي بن محمد بن يوسف الكتامي الإشبيلي عرف بابن الضائع لازم الشلوبين، وعبد الله بن العراقي القارئ، وأخذ عنه علم الكلام إمام في العربية والكلام، وله مشاركة في المنطق والفقه واللغة كان حسن الأخلاق، طوالا، جاحظ العينين، يخضب بالحناء. توفي سنة ثمانين وستمائة. ينظر: البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، ابو طاهر الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧ هـ)، الناشر: دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م، ص٢١٨، بغية الوعاة للسيوطي، ٢٠٤/٢.

(٣٩) هو: محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الشيخ الإمام الحافظ العلامة فريد العصر وشيخ الزمان وإمام النحاة من كبار العلماء بالعربية والتفسير والحديث والتراجم واللغات. ولد في إحدى جهات غرناطة، ورحل إلى مالقة. وتنقل إلى أن أقام بالقاهرة. وتوفي فيها، بعد أن كف بصره واشتهرت تصانيفه في حياته وقرئت عليه من كتبه (البحر المحيط - ط) في تفسير القرآن، ثماني مجلدات، و(التذييل والتكميل - خ)، و(ارتشاف الضرب من لسان العرب - خ) و(اللمحة البدرية في علم العربية - خ) وغيرها من المصنفات، توفي سنة (٧٤٥هـ). ينظر: الوافي بالوفيات، ١٧٥/٥، الاعلام للزركلي، ١٥٢/٧.

(٤٠) ينظر: الاقتراح في اصول النحو، للسيوطي، (٤٤). بتصرف

(٤١) ينظر التذييل والتكميل، ابو حيان، ١٦٨/٥.

(٤٢) نشر ذلك في مجلة المجتمع العدد ٢٩٩/١.

– فئة توسطت الفئتين حيث أجازت الاستشهاد بالحديث بشرط أن يكون موافقا للفظ المروي عن النبي صلى الله عليه وسلم، ومن هذه (الفئة السيوطي والشاطبي)، والذي عبر عن موقفه من ذلك بقوله: "وعلى هذا نقول: إن الحديث في النقل ينقسم قسمين:

أحدهما: ما عرف أن المعتنى به فيه نقل معانيه لا نقل ألفاظه، فهذا لم يقع به استشهاد من أهل اللسان.

والثاني: ما عرف أن المعتنى به في نقل ألفاظه لمقصود خاص بها، فهذا يصح الاستشهاد به في أحكام اللسان العربي، كالأحاديث المنقولة في الاستدلال على فصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ككتابه إلى همدان: أن لكم "فراعها ووهاطها وعزازها، تأكلون علافها، وترعون عفاءها، لنا من دفئهم وصرامهم ما سلموا بالميثاق والأمانة، ولهم من الصدقة الثلب، والناب، والفصيل، والفارض، والداجن والكبش الحوري، وعليهم فيها الصالغ، والقارح"[٤٣]. ومعنى ذلك أن الإمام الشاطبي ذهب إلى التفصيل في المسألة فلم يرد الحديث أو يقبله مطلقا، فما كان الهدف منه نقل المعنى دون الإهتمام باللفظ (بحيث تجد له ألفاظاً أخرى متعددة) فهذا لا يجوز الاعتماد عليه في الاستدلال وبناء القواعد النحوية، وما كان فيه مراعاةً للفظ بحيث كان نقلاً لوصفٍ وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم لشيءٍ بعينه (أو ما شابهه) فلا بأس من اعتباره والاستدلال به.

وبعد أن فصل المؤلف (رحمه الله) هذا التفصيل أنكر على ابن مالك صنيعه في الاستشهاد بالحديث مطلقا فقال: "وابن مالك– رحمه الله– لم يفصل هذا التفصيل الضروري الذي لابد منه، فبنى الأحكام على الحديث مطلقا، ولا أعرف له فيه من النحاة سلفا"[٤٤].

وقد استشهد الإمام الشاطبي في متفرقات من كتابه ببعض الأحاديث الشريفة واستدل بها على بعض المسائل النحوية كشاهد أو ذكرها كأمثلة ومن ذلك:

---

(٤٣) ينظر: **الفائق في غريب الحديث والأثر**، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، المحقق: علي محمد البجاوي - محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار المعرفة - لبنان، الطبعة: الثانية، ٤٣٤/٣، **غريب الحديث**: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ)، المحقق: د. عبد الله الجبوري، الناشر: مطبعة العاني - بغداد، الطبعة: الأولى، ١٣٩٧، ٥٤٨/١. ومعنى الحديث: الفراع أعالي الجبال وما أشرف من الأرض واحدها فرعة والفرعة في غير هذا القملة ومنه حسان بن الفريعة إنما هو تصغير فرعة ويقال جبل فارع إذا كان عاليا وامرأة فارعة إذا كانت طويلة، والوهاط المواضع المطمئنة واحدها وهط وبه سمي الوهط وهو مال كان لعمرو بن العاص بالطائف والعزاز ما صلب من الأرض وهو الجلد وأخذ من قولك تعزز لحم الناقة إذا اشتد ومنه قول الله تعالى {فعززنا بثالث} أي قوينا الاثنين بثالث، وقوله يأكلون علافها جمع علف يقال علف وعلاف كما يقال جمل وجمال ويقال أيضا أعلاف كما يقال أحمال والعفاء من الأرض ما ليس لأحد فيه شيء، وقوله لنا من دفئهم يعني من إبلهم وشائهم وسميت دفأ لما يتخذ من أوبارها وأصوافها من الأكسية والبيوت وغير ذلك مما يستدفأ، وقوله لنا من دفئهم يعني من إبلهم وشائهم وسميت دفأ لما يتخذ من أوبارها وأصوافها من الأكسية والبيوت وغير ذلك مما يستدفأ به، والصرام النخل لأنه يصرم أي يجتنى ثمره وأصل الصرم القطع ويكون الصرام التمر بعينه، وقوله لنا من ذلك ما سلموا بالميثاق والأمانة يريد أنهم مأمونون على صدقات أموالهم بما أخذ عليهم من الميثاق ولا يبعث فيه إليهم مصدق ولا عاشر، وقوله لهم من الصدقة الثلب وهو من الإبل الذكور الذي قد تكسرت أسنانه، والفارض المسنة ومنه قول الله تعالى {لا فارض ولا بكر} أي لا كبيرة ولا صغيرة، والداجن التي يعلفها الناس في منازلهم ولا يبعث بها إلى المرعى، والصالغ من الغنم والبقر الذي كمل وانتهت سنه السنة السادسة منه، والقارح من الخيل مثله والكبش الحوري أراه منسوبا إلى الحور وهي جلود حمر تتخذ من جلود المعز ومن جلود بعض الضأن. ينظر: غريب الحديث لابن قتيبة (٥٥٥/١، ٥٥٤، ٥٥٣، ٥٥٢، ٥٥١).

(٤٤) المقاصد الشافية، ٤٠٤/٣.

– قوله عليه الصلاة والسلام: (يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلاَئِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلاَئِكَةٌ بِالنَّهَارِ..)[٤٥]، وقد استشهد به المؤلف في عدة مواطن منها:

١– في (باب الإبتداء)[٤٦] وذلك في رده على تساؤل: إن مطابقة الوصف مع الاسم بعده في غير الإفراد يكون فيها الثاني مبتدأ والوصف خبرًا مقدمًا بإطلاق؟ فأجاب: بأن ذلك ليس في كل لغة بل هو مختص بلغة من لا يلحق الفعل علامة التثنية والجمع إذا أسند إلى الظاهر (وهي اللغة المشهورة) فتقول: (قام الزيدان، قام الزيدون) وأما من يلحق العلامتين فيقول: هنالك قاما الزيدان وقاموا الزيدون وهي لغة: "يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار" فيصح أن يعرب الثاني فاعلا بالوصف لا مبتدأ إذا قلت: أقائمان الزيدان؟ وأقائمون الزيدون؟ (بخلاف من يقول: قام الزيدان والزيدون فإنه لا يقول هنا: أقائمان الزيدان وأقائمون الزيدون) إلا على الابتداء والخبر.

٢– وفي باب (الفاعل)[٤٧] كذلك: في مسألة إسناد الفعل إلى الاسم الظاهر وفيه لغتان: لغة مشهورة وهي تجريد الفعل من العلامة، ولغة شاذة وتنسب لبعض قبائل العرب وأشار إليها الناظم بقوله: (وقد يقال سعدا وسعدوا)، استدل المؤلف كذلك بالحديث الشريف.

– وفي باب (الابتداء)[٤٨] ايضاً استشهد بقوله عليه الصلاة والسلام: «أَفْضَلُ مَا قُلْت أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ»[٤٩]، في مسألة إذا كانت الجملة التي تأتي بعد المبتدأ هي نفس المبتدأ في المعنى إكتفى المبتدأ بها في الربط؛ لوضوح الإرتباط بينهما.

– ما ورد من حديث عائشة –رضي الله عنها– قولها: «كَانَ يَكُونُ عَلَيَّ الصَّوْمُ مِنْ رَمَضَانَ، فَمَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقْضِيَ إِلَّا فِي شَعْبَانَ، الشغل برسول الله صلى الله عليه وسلم»[٥٠]، حيث استدل به المؤلف –رحمه الله– في باب (الفاعل)[٥١] في مسألة حذف الفعل وهو أن الفعل قد يحذف ويدل عليه معنى الجملة لا لفظها، والتقدير: يمنعني الشغل من الصيام.

إذاً فالخلاصة أن الإمام الشاطبي كان من علماء الأندلس الذين سلكوا مسلكاً وسطاً بين الفئتين، فأخذ من الحديث ما اتفق على صحته واشتهرت روايته ورد ما كان بخلاف ذلك.

---

(٤٥) اخرجه البخاري في الجامع الصحيح، (كتاب مواقيت الصلاة) من حديث ابي هريرة - رضي الله عنه - الناشر: دار الشعب - القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٩٨٧م، ١٤٥/١، واخرجه الامام في صحيحه كذلك، (باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، ٤٣٩/١.

(٤٦) ينظر: المقاصد الشافية، ٦١١/١، ٦١٢.

(٤٧) المصدر السابق، ٥٥٧/٢.

(٤٨) ينظر: المقاصد الشافية، ٦٤٠/١.

(٤٩) اخرجه الامام مالك في الموطأ من حديث طلحة بن عبيد الله - رضي الله عنه - باب (ما جاء في الدعاء). شرحه الشيخ عبدالكريم الخضير، ١٥/٤١. واخرجه الامام الترمذي في سننه من حديث عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده باب (الدعاء) وقال عنه الترمذي انه غريب من هذا الوجه. ينظر: الجامع الكبير (سنن الترمذي) المحقق: بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت، سنة النشر: ١٩٩٨م، ٤٦٤/٥.

(٥٠) اخرجه البخاري في صحيحه من حديث عائشة-رضي الله عنها - باب (متى يقضي قضاء رمضان)، ٣٥/٣، واخرجه مسلم في صحيحه، (باب قضاء رمضان في شعبان)، ١٥٤/٣.

(٥١) ينظر: المقاصد الشافية، ٥٦٦/٢.

المبحث الثالث:

الاستشهاد بكلام العرب.

كما هو معلوم أن كلام العرب عبارة عن منثور ومنظوم، وسيقف الباحث في هذه الأسطر مع الشق الأول من كلامهم وهو المنثور.

أ- المنثور:

وهو كل كلام قالته العرب ونطقت به من غير نظم ويشمل ذلك (الحكم والأقوال والخطب والمواعظ وغيرها)، وليس كل كلامٍ نُقل عن العرب يحتج به ولكن: "يحتج منه بما ثبت عن الفصحاء الموثوق بعربيتهم"[٥٢]، ومن كلام العرب ما نقل من لغاتهم ولهجاتهم المختلفة باختلاف قبائلهم وأماكنهم، حيث نجد كتب النحاة واللغويين مليئة بذلك واهتموا كثيراً بما قالته العرب، ويظهر ذلك في ما قاله الشاطبي دفاعًا عنهم ممن قد يتهمهم برد كلام العرب وعدم قبوله فقال: "فهم أشد توقيرا لكلام العرب وأشد احتياطا عليه ممن يغمز عليهم بما هم منه براء،... فهم أحق أن ينسب إليهم المعرفة بكلام العرب ومراتبه في الفصاحة، وما من ذلك الفصيح قياس، وما ليس بقياس"[٥٣].

وقد كان المؤلف -رحمه الله- ممن يقدم كلام العرب المنثور ويقدره ويكثر من الاستشهاد به حتى أنه جعل كلامهم أصلٌ يقاس عليه، ولذلك نجده يعيب على ابن مالك إكثاره من الشعر دون غيره من كلام العرب فقال: "وأما اعتماده على الشعر مجرداً من نثر شهير يضاف إليه، أو يوافق لغة مستعملة يحمل ما في الشعر عليها - فليس بمعتمد عند أهل التحقيق؛ لأن الشعر محل الضرورات"[٥٤].

كما نجده كذلك يستخدم مثل هذه الألفاظ كثيراً في كتابه كـ: (كثر في كلام العرب)[٥٥]، (جاء في كلام العرب)[٥٦]، (والمألوف في كلام العرب)[٥٧]، (لا يشهد له أصل في كلام العرب)[٥٨]، فهذه العبارات وغيرها تشي باعتماد المؤلف اعتماداً كبيراً على ما نطق به اللسان العربي.

ومن الأمثلة على استدلاله بكلام العرب ولغاتهم ما يلي:

أ- قالت العرب: (يا أبت ويا أمت) حيث استدل بها المؤلف على جواز حذف الياء من المنادى وإبدالها بالتاء عوضاً عنها[٥٩].

---

(٥٢) ينظر: الاقتراح، للسيوطي ص٤٧.
(٥٣) المقاصد الشافية، ٤٥٧/٣.
(٥٤) المصدر نفسه، ٤٠٥/٣.
(٥٥) ينظر: المصدر نفسه، ٥٠٠/٥، ٥٨٥/١، ٥٩٦/١.
(٥٦) المصدر نفسه، ٥٦٤/٥.
(٥٧) المصدر نفسه، ٥٦٦/٥.
(٥٨) المصدر نفسه، ٥٧٧/٢.
(٥٩) ينظر: المصدر نفسه، ٣٣٧/٥.

ب- إذا أردت النسب إلى (قلت) فإنك تقول: (قولي) برد الفعل إلى أصله، وذلك قياساً لما قالته العرب من النسب إلى (كنت) فإنك تقول: (كنتي) ((حكى ابن خروف عن أبي زيد أنه قال: يقال رجل كنتي؛ أي: كبير))[٦٠].

ج- من المواضع التي تحذف فيها أداة النداء مع اسم الجنس وهو قليل، واستدل بقول العرب: "افتد مخنوق" و"أطرق كرا" يقال للكرى إذا صيد: أطرق كرا أطرق كرا، إن النعام في القرى. وقالوا: "أصبح ليل"[٦١].

إذاً مما ذُكر آنفاً يتضح أن المؤلف يقدس كلام العرب المنثور ويستدل بلغاتهم وحكمهم وأقوالهم ويقيس عليه ويستنبط منه القواعد والفوائد.

أيضاً يستدل المؤلف بالشق الآخر من كلامهم وهو المنظوم أو ما اشتهر بمصطلح (الشعر) وهو ما سيتناوله الباحث في الأسطر التالية.

ب-المنظوم (الشعر):

أطلق علماء اللغة على كلام العرب المنظوم الذي يستدل به لفظة (الشاهد الشعري)، والشاهد الشعري له مكانته الكبيرة في علم اللغة بوجه عام وفي علم النحو بوجه خاص، ويتبين هذا الأمر من خلال حرص علماء اللغة على جمع الشعر والاستشهاد به لدعم ما يقولون، وتأييد ما يقرونه من قواعد وآراء.

وكغيره من المصنفين فقد أورد الإمام الشاطبي كثيراً من الشواهد الشعرية في كتابه، ويمكننا أن نلخص ذلك في الآتي:

١-عددها، وموضوعاتها.

أما عدد الأبيات الشعرية التي استشهد بها الشاطبي فكثيرة جداً، حيث أورد أكثر من ألفي شاهد شعري موزعة على أبواب النحو والصرف، فقد يذكر أحيانًا عددًا من الشواهد الشعرية للمسألة الواحدة تتراوح بين خمسة إلى ستة شواهد شعرية (وقد تزيد أو تنقص)، ولكنه في المقابل كذلك قد يذكر بعض المسائل النحوية دون أن يذكر لها شاهدًا شعريًا واحدا، وقد يستدل ببعض الشواهد اللغوية لتوضيح معنى ما ولكنها نادرة إذا ما قورنت بالشواهد النحوية.

والملاحظ أن المؤلف ساوى في الإهتمام بين الشواهد القرآنية وبين الشاهد الشعري، "حيث بلغت شواهد النص القرآني بقراءاته المتعددة لديه (٢٠٨٨) شاهداً، وبلغت الشواهد الشعرية لديه (٢٢٩١) شاهداً"[٦٢].

(٦٠) المصدر نفسه، ٥١٣/٧.
(٦١) المصدر نفسه، ٢٤٧/٥-٢٤٨.
(٦٢) جوانب التفكير النحوي عند الشاطبي، ص٩٤.

٢-بيان موضع الاستشهاد.

يذكر الشاطبي أبيات الألفية ثم يشرع في إعرابها ومن ثم شرحها ملتزماً التفصيل في شرحها وبيانها، ويتخلل هذا التفصيل الأمثلة المصنوعة والشواهد بأنواعها بما فيها الشواهد الشعرية، ولكن الملاحظ في أغلب شواهد الكتاب أن الإمام الشاطبي لا يشير إلى موضع الشاهد ولا وجه الاستشهاد، إلا أنه قد يذكر وجه الاستشهاد بصورة مختصرة.

٣-هل انفرد الشاطبي بذكر شواهد دون غيره من شراح الألفية؟

سبقت الإشارة إلى غزارة الشواهد الشعرية في كتاب المقاصد الشافية، وهذه الشواهد من حيث انفراد الشاطبي بذكرها من عدمه يمكن أن تنقسم إلى قسمين:

الأول: ما وافق فيه الشاطبي غيره من النحاة في مواضع الاستشهاد، بمعنى أن يكون موضع الشاهد في البيت الشعري عند الشاطبي هو نفسه عند غيره.

الثاني: ما انفرد به الشاطبي دون غيره من النحاة. وهو على نوعين:

أ- ما انفرد به الشاطبي في ذكر وجه الاستشهاد، بمعنى أنه يذكر الشاهد وهو عند غيره من النحاة كذلك، إلا أنه يختلف معهم في ذكر سبب الاستشهاد.

ب- ما انفرد بذكره الشاطبي ولم يذكره غيره من النحاة.

أي انفرد بذكره وبسبب الاستشهاد به، وهذا موجود كذلك في ثنايا الكتاب. (والمقام لا يتسع لذكر الأمثلة على ذلك).

٤- التقيد بزمن الاستشهاد:

الذي يظهر للباحث أن الإمام الشاطبي ممن التزم زمن الاستشهاد ولم يخرج عنه، فاستشهد بشعراء الطبقة الأولى (الجاهليين) وأكثر من ذلك كامرؤ القيس[٦٣]، والأعشى[٦٤]، وطرفة ابن العبد[٦٥]، وعنترة بن شداد[٦٦] وغيرهم من الشعراء الجاهليين.

واستشهد بشعراء الطبقة الثانية (المخضرمين) كحسان بن ثابت[٦٧] وكعب ابن زهير[٦٨] وغيرهم، كما استشهد بشعراء الطبقة الثالثة (الإسلاميين) كالفرزدق[٦٩] وجرير[٧٠]وغيرهم.

ولم يستشهد بأشعار المولدين كـ(أبي تمام وأبي نواس) وغيرهم من المتأخرين ممن كانوا في عصر اختلاط الألسن واندثار العربية الفصحى.

---

(٦٣) ينظر: المقاصد الشافية، ٢٤٠/١، ٢٥٦، ٣٣٤، ٤٧٤، ٢٣/٢، ١٨٨، ١٩٠، ٢٤٠.
(٦٤) ينظر: المصدر نفسه، ١٦٦/١، ٢١٠، ٣٦٩، ٥٦/٢، ١٥٣، ٤٠٠، ٤٠٨/٣.
(٦٥) ينظر: المصدر نفسه، ٤١١/١، ٥٣٧، ١٤٧/٢، ٢١/٤.
(٦٦) ينظر: المصدر نفسه، ١١٠/٢، ٤٩٥، ٤٨٣/٣، ٤٩٨، ٥٠٦.
(٦٧) ينظر: المصدر نفسه، ١٩٣/١، ٤٣٩/٢، ٤٤٥، ٢٦٤/٣، ٢٤١/٤، ٥٣٢.
(٦٨) ينظر: المصدر نفسه: ٥٠٧/٣، ٦٢/٤، ١١٢/٦.
(٦٩) ينظر: المصدر نفسه: ٢٣٩/١، ٢٩٧، ٦٠٣، ٢٥/٢، ١٧٨، ٥٤٣.
(٧٠) ينظر: المصدر نفسه: ٤٠٤/١، ٤٥٦/٢، ٥٧٢، ٩٢/٣، ٢٤٠/٤، ٥١٧.

والذي يظهر للباحث كذلك أن المؤلف –رحمه الله– كان يكثر من الاستشهاد بالشواهد التي استشهد بها سيبويه ويوضح ذلك بقوله: (أنشده سيبويه)[٧١].

إذاً فالخلاصة أن السماع بكل أنواعه كان مقدماً على غيره من الأصول عند الإمام الشاطبي، حيث وافق مدرسته الأندلسية في كثيرٍ منها فأخذ بالقراءات ولم يردها ودافع عن القراء وأثنى عليهم، واستشهد بالحديث الشريف وانتهج منهجاً وسطاً تميز به عن غيره، واستشهد بكلام العرب ولغاتهم وأكثر من الشواهد الشعرية واستدل بها وبنى عليها واستخرج منها الفوائد والأحكام وحاور وناقش ووافق واعترض حتى أخرج مادة علمية غزيرة استفاد منها القاصي والداني.

الخاتمة:

وفي ختام هذا البحث المتواضع، وقد انتهى بي المطاف إلى هذا الحد الذي اقتضاه المنهج وارتضاه البحث، وفق الخطة التي ذكرتها في المقدمة، وإذ انتهيت فيه إلى الصورة التي رجوت، يجدر بي أن أعرض لأبرز ما ورد فيه من أفكار أو حقائق أو نتائج، وتوصيات وهي على النحو التالي:

أولاً: النتائج.

١- أن السماع بأقسامه ومصادره أهم أصل من أصول اللغة، وعلى ضوئه بنيت الفوائد ومنه استنبطت الأحكام والقواعد، بل إن المصادر الأخرى تستقي منه فهو أصل الأصول وعمدتها.

٢- أن الإمام الشاطبي سلك مسلك مدرسته الأندلسيه في الاستدلال بالقراءات، فقد استشهد بجميع القراءات متواترة كانت أو شاذة، ولم يكتفي بذلك بل دافع عن قرائها وأثنى عليهم.

٣- مجيئه بمذهب وسط في الاستدلال بالحديث فلم يرده كله ولم يأخذه كله، بل اشترط لذلك ما اتفق على صحته واشتهرت روايته.

٤- استشهد بكلام العرب من نظم ونثر فأكثر من الشواهد الشعرية والحكم والأقوال واللغات المختلفة التي كانت موجودة عند العرب، وتقيد بفترة الاستدلال التي حددها علماء اللغة والتي تنتهي بنهاية القرن الثاني للهجرة النبوية.

ثانياً: التوصيات. وهي على النحو التالي:

١- إبراز كتاب المقاصد الشافية للإمام الشاطبي، وذلك من خلال عمل دراسات مكثفة لجميع فصوله وأجزائه لاستخراج الدرر والفوائد الكامنة فيه، فهذا الكتاب لم يعط حقه من الدراسة والبحث عند كثير من الدارسين والمختصين في اللغة مع أنه من أهم شروح الألفية وأعظمها.

٢- إكمال تحليل ومعرفة منهجية الإمام الشاطبي في بقية مصادر النحو من (قياس واجماع وعلل وغيرها).

(٧١) ينظر: المقاصد الشافية، ٤٥/١، ٢٣٤، ٢٣٩، ٢٩٧، ٣٠٤، ٥٧٩/٢.

المصادر والمراجع:

أولاً: القرآن الكريم والسنة النبوية.

ابن جني، أبو الفتح عثمان، (١٩٩٩م) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات، ط١، وزارة الأوقاف– المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات، لأبي الفتح عثمان ابن جني (المتوفى: ٣٩٢هـ)، الناشر: وزارة الأوقاف– المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، الطبعة: ١٤٢٠هـ–١٩٩٩م.

أطروحة دكتوراه بعنوان (أثر القراءات القرآنية في الصناعة المعجمية تاج العروس نموذجا)، الدكتور: عبدالرزاق القادوسي، عام النشر: ٢٠١٠م.

البحر المحيط في التفسير لأبي حيان الاندلسي، تحقيق صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر– بيروت، الطبعة: ١٤٢٠هـ.

الفائق في غريب الحديث والأثر، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، المحقق: علي محمد البجاوي– محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار المعرفة – لبنان، الطبعة: الثانية.

غريب الحديث: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ)، المحقق: د. عبد الله الجبوري، الناشر: مطبعة العاني– بغداد، الطبعة: الأولى، ١٣٩٧.

الجامع الصحيح للبخاري، الناشر: دار الشعب – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٩٨٧م.

صحيح مسلم للامام مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي– بيروت.

الجامع الكبير(سنن الترمذي) المحقق: بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي– بيروت، سنة النشر: ١٩٩٨م.

ثانياً: المصادر اللغوية.

شرح التسهيل لمحمد بن عبدالله ابن مالك (المتوفى: ٦٧٢هـ)، المحقق: د. عبد الرحمن السيد، د. محمد بدوي المختون، الطبعة: الأولى (١٤١٠هـ–١٩٩٠م).

الاقتراح في أصول النحو، للسيوطي جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر (المتوفي: ٩١١هـ)، تعليق: عبدالحكيم عطيه، راجعه: علاء الدين عطية، الناشر: دار البيروتي، دمشق، الطبعة الثانية: ١٤٢٧هـ–٢٠٠٦م.

الكتاب لسيبويه، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨هـ–١٩٨٨م.

التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل لأبي حيان الأندلسي، المحقق: د. حسن هنداوي، الناشر: دار القلم – دمشق (من ١ إلى ٥)، وباقي الأجزاء: دار كنوز إشبيليا، الطبعة: الأولى.

المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية لأبي اسحاق الشاطبي (المتوفي:٧٩٠هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، الناشر: معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى – مكة المكرمة، الطبعة: الاولى ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

البحث العلمي أساسياته النظرية وممارسته العملية، لرجاء وحيد دويدري، الناشر: دار الفكر المعاصر-بيروت-لبنان- ، الطبعة: الأولى-جمادى الآخرة ١٤٢هـ- أيلول سبتمبر ٢٠٠٠.

أبجديات البحث في العلوم الشرعية. للدكتور فريد الأنصاري، الناشر: منشورات الفرقان- الدار البيضاء، الطبعة: الأولى- الدار البيضاء ذو القعدة/١٤١٧، ابريل/١٩٩٧م.

لمع الادلة في أصول النحو، لأبي البركات ابن الانباري، تحقيق: سعيد الافغاني، الناشر: دار الفكر، الطبعة: الاولى- دمشق ١٩٥٧م.

جوانب التفكير النحوي لدى الاصوليين. د. عزمي حمد عيال سلمان. الناشر: دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان الطبعة الاولى ١٤٣٣-٢٠١٢م.

ثانيا: التراجم واللغات.

لسان العرب لابن منظور جمال الدين الأنصاري (المتوفي: ٧١١هـ)، الناشر: دار صادر- بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٤هـ.

المفردات في غريب القران، للراغب الاصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، الناشر: دار المعرفة – لبنان.

الأعلام: لخير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفي: ١٣٩٦هـ)، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر- أيار/ مايو٢٠٠٢م.

الوافي بالوفيات لصلاح الدين بن عبد الله الصفدي (المتوفى: ٧٦٤هـ)، المحقق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث – بيروت، عام النشر: ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

إنباه الرواة على أنباه النحاة: جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (المتوفى: ٦٤٦هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار الفكر العربي – القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ-١٩٨٢م.

البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، أبو طاهر الفيروزآبادي (المتوفى: ٨١٧هـ)، الناشر: دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العصرية – لبنان/صيدا.

الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لأبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

معجم مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس (المتوفي: ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبدالسلام هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.